شفيق مقار

٢ ـ في جذور الشر

الذئب الآتي من عند الاله

د. ستيوارت عن هرتسل

الحدود الجغرافية لعهد الاله

لا ندري ان كان دزموند ستيوارت (وقد اخترنا الكتابة عن كتابه ، « هرتسل » ، لتكون اطارا لبحث في جذور الشر ، لان الكتاب عن هرتسل ، ولانه بقلم مثقف اوروبي ، وبالذات بريطاني ، ذي خلفية ليبرالية وميول تجاه العرب اقل ما يقال فيها انها ليست معادية لهم) ، نقول اننا لا ندري أن كان ستيوارت ـ وهو يجمع مادة كتابه من المصادر التي رجع اليها ـ قد اخضع ما تقوله تلك المراجع لعملية غربلة ورقابة ، ام انه ـ وهو يراجع الكتاب ويعده للمطبعة ـ قد قام بعملية تهذيب وتجميل لما اخذه من مراجعه . ففي الكتاب ثغرات مرجعية لافتة للنظر ، والذي يجعلها كذلك بوجه خاص ما التزمه الكاتب من دقة وافاضة في استشهادات بعينها . فهو يقول على سبيل المثال (ص ١٢) انه تبعا لرواية سفر التكوين ، حدث ان تقدم الاله من ابراهام ، ذلك البدوي البالغ من العمر ٩٩ عاما ، الذي كان قد قدم لتوه من بلاد ما بين النهرين ، عارضا عليه صفقة لا غش فيها .. وارض كنعان ، التي كان ابراهام وقومه ، في ذلك الوقت عابري سبيل فيها ، يطيقهم اهلها بالكاد (وعد الاله ابراهام) انها ستصبح ملكا خالصا لنسله ،الى الابد . ويورد المستر ستيوارت بعد هذا الكلام مباشرة ، استشهادا طويلا من العهد القديم عن حكاية « لحم غرلة » اليهود الذي جن به ذلك الاله الطيب ، والذي بات تختين اولئك الناس فيه « علامة عهد بين الاله وبينهم » ، لكن الكاتب لا يورد ما يشير ـ رغم استفاضة الاستشهاد ـ الى ما سبق ذلك العهد باسطر قليلة من تحديد جغرافي واضح لا لبس فيه للارض التي انصب عليها عهد الاله مع ابراهام ونسله الذي سيجعله الاله كله ملوكا :

« وفي ذلك اليوم قطع الرب مع ابراهام ميثاقا قائلا : لنسلك اعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات . القينيين ، والقنزيين ، والقدمونيين ، والحيثيين ، والفرزيين ، والرفائيين ، والاموريين ، والكنعانيين ، والجرجاشيين ، واليبوسيين » . (١).

فليس الميثاق ـ كما قد يتراءى لمن يأخذ الامور بظاهرها بالنسبة لحديث المستر ستيوارت عن ذلك العهد ـ قاصرا على ارض كنعان المسكينة وحدها او نسل الكنعانيين وحدهم ، بل بكل ارض مر بها العم ابراهام (معذرة ، سيدنا ابراهيم عليه السلام) وقومه من الرعاة الذين كان قد « انحدر بهم الى مصر ليتغرب هناك ، لان الجوع في الارض كان شديدا » (٢) ، فاكرمه اهلها الطيبون ابدا واشبعوا جوعه وجوع من معه رغم انه لعب عليهم « لعوبا » عبرانيا جلب على راس ملكهم فرعون « ضربات عظيمة » (٣) ، وبعد ان جاءهم هاربا من الجوع خرج من بلادهم « غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب » (٤) . وفي حله وترحاله ، وكل بضعة ايام يظهر له الاله ، ويخطب وده ،ويكثر له من المغريات ، ويتقرب اليه ، مر ابراهام عليه السلام وقومه بأراض واقوام كثيرة فراقت في عينه واعين قومه كل ارض مروا بها ،واضمروا القتل وسفك الدماء لكل قوم مروا بأرضهم ، واذا بالاله الذي يصوره سفر التكوين متمسحا بأذيال ابراهام عليه السلام ، يخمن ما بنفس ابراهام ونفوس قومه الرحل الذين كانوا بلا وطن ، ومن فرط حرص الاله على عقد حلف مع ابراهام ومعهم ، قطع على نفسه عهدا بأن يحقق لهم ما اشتهوه ، وان يعطي لنسل ابراهام كل تلك الارض التي بين النيل والفرات تكون ملكا حلالا لهم آبد الآبدين .

ونحن لا نقول آن المستر ستيوارت اسقط كل ذكر لذلك من استشهاداته ، بحيث بدا الامر كما لو كان متعلقا بارض كنعان المسكينه فحسب ، بسوء قصد او سوء نوية ، لا قدر الله ، لكن الذي نود قوله فقط انه ما كان أجمل لو عنى المستر ستيوارت ـ ما دام قد واتته الجرأة على الخوض في متن هذه المحرمات المهلكة ـ ان يورد الحوار الدرامي البارع الذي وضعه الاحبار على لسان شخصية الاله في هذه المسرحية المثيرة للاهتمام تعبيرا عن تطلعات شعبهم من قديم الى اراضي تلك الشعوب ، بالاقل لكي يحتاط لنفسه كل من كان من اهل النيل او اهل الفرات او كان من سلالة القينيين أو القنزيين او القدمونيين ،الى اخر شعوب تلك القائمة السوداء التي وضعها الاله من قديم . ولو كان المستر ستيوارت قد فعل ذلك (بغير كبير خشية فيما نظن ، لانه رجل اوروبي مسيحي مؤمن بالله والعهد القديم والعهد الجديد ولا حرج عليه ـ لذلك ـ في الاستشهاد بالحوار الذي اجرته الاقلام المقدسة على لسان الاله) ،لو كان ستيوارت قد فعل ذلك لكان قد حقق تماما ما يمليه التحضر والليبرالية والحرص على القيم الانسانية والاخلاقية العليا دون ان يلحق ضررا يخشى من مغبته باليهود او يفيد ضحاياهم فائدة تذكر ، لان حكاية من النيل الى الفرات شائعة وذائعة ومعروفة ومصورة بالنحت البارز فيما نعتقد على جدران الكنيست الذي يراقب الان ـ بوصفه مؤسسة ديموقراطية من مؤسسات العالم المتحضر الحر ـ تنفيذ بنود تلك الاتفاقية الدولية واسعة النطاق المعقودة مع الاله بهمة وكفاءة غربية عالية . اما الوحيد الذي كان سيفيد من ذكر تلك الحكاية المعروفة في السياق فالمستر ستيوارت وحده ، لان ذلك كان سيخرجه بالاقل من الحشد الكبير من الكتاب المتحضرين المستميتين في التمسك بالقيم الانسانية والحضارية العليا الذين يأخذون على ضحايا تلك المسرحية المقدسة عدم تعاونهم مع الشعب المختار في تنفيذ بنود الاتفاق كما وضعها الاله ، وبخروج المستر ستيوارت من ذلك الحشد العميم الذائب جوى في عشق شعب الله المختار ، كان كتابه سيصبح اكثر مدعاة للتصديق .

ومع ذلك فان المرء لا يجب ان يتجنى على المستر ستيوارت ويطالبه بما لم يكن بوسعه ان يفعله . لانه ، بالحقيقة ، ما الذي يسع الكاتب متى كان بريطانيا او اوربيا ـ مهما كان متحرر الفكر حسن النية

---

(١) العهد القديم ، سفر التكوين ، الاصحاح ١٥ ـ ١٨ / ٢١ .
(٢) نفس المرجع ، الاصحاح ١٢ ـ ١٠ .
(٣) نفس المرجع ، نفس الاصحاح ـ ١٧ .
(٤) نفس المرجع ، الاصحاح ١٣ ـ ٢ .

يفظ الضمير ـ ان يفعله ! ينكر ان الاسس التي تقوم عليها القيم الجوهريه لمجتمعه حتى يستطيع ان يكتب بسرعه في نفسيه مريبةكهذه! لانه لا مهرب ،فيما يعتقد ، من المجاهره ـ من مبدا الامر ـ بان اللعبه كلها قامت على صرح عتيق من الاكاذيب الزريه والتلفيقات المسرحيه . وان كنا لا نجد بيسن من يتهددهم الفناء ويتهددهم الابادة بفضل ما يوصل اليهود كل يوم الى تحقيقه عن طريق ذلك الصرح من الاكاذيب والتلفيقات ، ان كنا لا نجد من الكتاب الغرب مثلا من يجرؤ على وضع هذا الهراء التوراتي موضع السؤال والشك ، فكيف ـ بالتحقيق ـ يمكن لنا ان نتوقع ان يفعل ذلك نزموند ستيوارت او غير نزموند ستيوارت من كتاب الغرب الذين يشكل العهد القديم جزءا لا يتجزأ من برامجهم الروحي والثقافي ؟ واننا لنعتقد ان قدرا كبيرا مما اتصفنا به حتى الان من عجز في مواجهة دعاوي اليهود راجع الى عجزنا عن المجاهره ـ حتى فيما بيننا وبين انفسنا ـ بان هذا النوع الفارغ تله ، من اساسه ، تدبير ردي لا ينبغي ان يمر في النفس او ارتعه في الضحك . فنحن ، في قرارة انفسنا ، نأخذ اليهود مأخذ الجد ، وفي اعماق قلوبنا نعاني صراعا مهلكا بين مصالحنا الاساسيه كشعوب تعيش في اراض يريدها اليهود لانفسهم ، وبين مشاركتنا لليهود في المجال الروحي في الايمان بنفس الاله او بصور معدله عنه . والمشكله الاخطر ان العالم الغربي المسيحي (الذي ينتمي اليه المستر ستيوارت) ليس اقل مشاركه لليهود في ذلك المجال ، فالعهد القديم والعهد الجديد كتاب واحد . وخطوره المشكله ماثله في انه اذا كان اليهود قد توصلوا الى كسب تواطؤ البشر في الغرب وغير الغرب ممن اربطت مصالحهم بمصالح الصهيونيه في جريمه اغتيال شعب باكمله هو الشعب الفلسطيني وسرقة ارضه بحجه ان تلك الارض ارض وعد الاله شعبه المختار بها من قديم ،فما الذي لا يمكنهم ان يتوصلوا اليه مستقبلا (بعد ان يستتب لهم الامر في فلسطين ويعززوا بها قواعدهم متحفزين لوثبة توراتية اخرى ، كما يبدو الان انهم لا محالة فاعلون بفضلنا وبتعاون منا) ما الذي لا يمكنهم ان يتوصلوا اليه مستقبلا بالنسبة لسائر تلك المناطق الاخرى التي تعينت « حدودها الآمنه » في ذلك الفرمان الالهي ؟

منذ ايام كتبت صحيفة انجليزيه « متحضرة للغاية » تقول ان على العرب ومن « يقفون وراءهم » اي السوفييت (فمحاولة العرب الدفاع عن انفسهم تصور باعتبارها « تغلغلا للنفوذ السوفييتي في المنطقة ») ان يدركوا ان « السماء ذاتها سوف تتشقق فوق رووس البشر بالف صدع رهيب ، في مواضع وباساليب لا تخطر ببال بشر » اذا ما حاولوا حقا اخراج اليهود من ارضهم الموعودة (٥) . فان كان ارتباط اولئك الناس بالدولة الصهيونيه والتزامهم باستمرار جريمة اغتيال الشعب الفلسطيني واغتصاب ارضه قد بلغ مبلغ المجازفة بمثل هذا التهديد السافر بحرب نوويه عالمية ، فمنذا الذي يضمن لنا اننا اذا ما خضعنا (« ابتغاء للسلامة ») وتركنا اليهود يستولون على هذه القطعة من الارض او تلك من كامل الرقعة الموعودة التي تعهد لهم الاله بها ، لن يتواطأ اولئك الناس معهم من جديد ، باعتبار ان تلك الارض (من النيل الى الفرات) ميراث وعدهم خالق الاكوان به كما هو مسجل في الكتاب المقدس بالفصل الاول من جزئه الاول ، « العهد القديم » ؟ ومن نكون نحن البشر لننقض وعد الاله لشعبه المختار ؟ حقيقة منذا الذي يضمن لنا ارضنا من مثل ذلك الاغتيال المقدس ؟ ومنذا الذي يضمن لنا الا يحولنا وعد الاله نحن ايضا الى لاجئين في خيام يجتمع العالم كله عليهم ليغتالهم ويتخلص من مشكلتهم الكئيبة المزعجة حرصا على الحضارة والقيم الاخلاقية والانسانية العليا؟

لهذا يبدو اغفال اي جزء من الصورة الرهيبة ـ وليسمح لنا المستر ستيوارت ، رغم ايماننا بحسن نواياه ونبله ونحضره العظيم وليبراليته البريطانية المتسامحة ـ باعثا ، بالاقل ، على الانزعاج والتساؤل . لانه ما الذي جعل بوسع مثل ذلك العلم (الذي ان لم يكن ماجورا فانه مسعور) ان يهدد البشر اجمعين في تلك الجريده بشنق السماء فوق رووسهم في الف موضع اذا ما حاول احد ان يسترد شبرا من ارض فلسطين او يسترد حتا من حقوق شعب فلسطين ، ما الذي جعل بوسع ذلك العلم الماجور او المسعور ان يقول ذلك الا مجموعه المسلمات « الاخلاقيه والانسانيه » التي اقيم عليها التواطؤ بالنسبه للجريمة الراهنه وما سوف ياتي بعدها ـ لا محاله ـ من جرائم دمويه تعاني فيها شعوب باكملها ، باسم الله والدين والمعدين والاخلاق والحضاره ؟ ولئلا يبدو ظالمين للمستر ستيوارت او منكرين لفضله ، وهو الذي جرؤ على التسيير فوق هذه الارض الملغومه ،يحسن ان نذكر اننا نحن اصحاب المشكله لا نكاد نجرؤ على امعان النظر صراحة في جذورها الحقيقية ، لاننا لا نجرؤ . لان اشياء كثيرة وفظيعه تتوقف على مثل تلك المحاوله . ولذا فاننا ننساق وراء رغبتنا في الخروج من ذلك المازق المهلك وتقبل بارتياح بالغ الوهم القائل بان نبع الجريمه المسموم لا وجود له الا في ربه الفكر الصهيوني .طيب. لنسلم بذلك . ولكن من اين نبعت الصهيونية ؟ ومم استمدت اسمها واطارها واحلامها ومراميها والاهم والاخطر : دعاماتها التاريخيه والاخلاقيه ؟ فان كنا نحن « المحكوم علينا بالموت ونحييك يا يهوه » (كما كان المحكوم عليهم بالموت في ساحات الالعاب الرومانية يحيون امبراطور روما قبل ان يدفعوا للاقاه مصيرهم)، ان كنا نحن لا نجرؤ فكيف يحق لنا ان نتوقع من ستيوارت او غيره ان يجرؤ .. نيابه عنا ؟ وفوق ذلك ، فان اخلاف النظرة الى المشكله (الذي يعبر عنه المثل القائل « من كانت يده في الماء ليس كمن كانت يده في النار ») يجعلنا ، بل ويجعل من حقنا ، النظر الى ما يأخذ فيه الكتاب « المتحضرون » من اصطناع للنزاهة والموضوعية واتساع الافق الفكري وهم يناقشون مسائل فنائنا او بقائنا باعتباره رياء وتعمية وتعصبا .

ولقد مس ستيوارت ، والحق يقال ، صميم المشكلة ، من بداية كتابه القيم ، مسا خفيفا لكنه لماح ، عندما اشار الى هرتسل بقوله انه الرجل « الذي توصل الى الربط بين المفهوم الغربي للدولة واحلام اليهود المسيانية » لكن هذه الاشارة التي قد تكون مبهمة بعض الشيء ، كرسم مغبش على زجاج تنضح وتتحدد بجلاء ينفذ ، كالنصل البارد في العين المصرة على ان تظل مغمضه ،في كلمات لا مواربة فيها كهذه الكلمات :

« ان قوات « الدفاع » الاسرائيلية .. قد اعادت للبطولة اليهودية كل امجادها القديمة ،بشكل لعله لم يتحقق قبلا منذ ايام يشوع ابن نون ، والملك داود .» (٦)

والكلمات لديفيد بن جوريون بعد حملة سيناء الاولى . ويشوع الذي اعادت قوات الدفاع الاسرائيلية امجاده هو الذي كلمه الاله بعد موت موسى ، وكان ابوه نون خادما لموسى (وبالضرورة مطلعا على كل اسراره)،فقال له :

« موسى عبدي قد مات . فالان قم اعبر هذا الاردن انت وكل هذا الشعب الى الارض التي انا معطيها لهم اي لبني اسرائيل . كل موضع تدوسه بطون اقدامكم لكم اعطيته كما كلمت موسى . من البريه ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع ارض الحيثيين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » . (٧) .

وكانت اول امجاد يشوع مذبحة اريحا التي تواطأ فيها الاله ذاته بطريقة في الحقيقة مخجلة . فقد ارسل يشوع بن نون ذاك « رجلين جاسوسين سرا ، قائلا اذهبا انظرا الارض واريحا . فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية (مومس) اسمها راحاب واضطجعا هناك .. فخبأتهما

(٥) « الديلي تلغراف » ، الافتتاحية ،عدد ١٦ـ١٢ـ١٩٧٤

(٦) Avraham Avi - hai , « Ben Gurion , State - Builder » John Wiley & Sons , N . Y . - Israel Universities Press , 1974 , P . 43 ,

(٧) العهد القديم ، سفر يشوع ، الاصحاح الاول ـ ٤/١ .

المرأة وقالت لهما علمت ان الرب قد اعطاكم الارض وان رعبكم قد وقع علينا وان جميع سكان الارض ذابوا من اجلكم . لاننا قد سمعنا كيف يبس الرب مياه بحر سوف قدامكم عند خروجكم من مصر وما عملتموه بملكي الاموريين اللذين في عبر الاردن سيحون وعوج اللذين حرمتوهما (ذبحتوهما) . سمعنا فذابت قلوبنا ولم تبق بعد روح في انسان بسببكم . لان الرب الهكم هو الله في السماء من فوق وعلى الارض من تحت . فالان احلفا لي بالرب واعطياني علامة امانة. لاني قد عملت معكما معروفا . بان تعملا انتما ايضا مع بيت ابي معروفا . وتستحييا (تبقيا على) ابي وامي واخواتي وكل ما لهم وتخلصا انفسنا من الموت » (٨) فما تفعله بعض الامم الان طالبة النجاة لنفسها فعلته المومس راحاب من قديم . وبعد ان خبأت المومس الجاسوسين ومكنتهما من القيام بمهمتهما خير قيام عادا الى يشوع السفاح وقالا له « ان الرب قد دفع بيدنا الارض كلها وقد ذاب كل سكان الارض (رعبا) بسببنا » (٩) . وبعد غدو ورواح والاعيب الهية يكرر الاله فيها معجزة جفاف ماء البحر اكراما لخاطر شعبه المختار « فتقف المياه المنحدرة (بنهر الاردن) من فوق وتقوم نداً واحدا بعيدا جدا .. والمياه المنحدرة الى بحر العربة البحر الملح انقطعت تماما يعبر اليهود مقابل اريحا ويقف الكهنة (ولم تبتل اقدامهم) حاملين تابوت العهد على اليابسة في وسط الاردن راسخين وجميع اسرائيل عابرون على اليابسة حتى انتهى جميع الشعب من عبور الاردن » (١٠) وعندما مر الكهنة حاملين تابوت الشهادة من وسط النهر واجتذبت بطون اقدامهم الى اليابسة رجعت مياه الاردن الى مكانها كما من قبل الى كل شطوطه ، وصعد كل الشعب (كالذئاب المسعورة) من الاردن في اليوم العاشر من الشهر الاول وحلوا في الجلجال في تخم اريحا الشرقي .. وعندما سمع جميع ملوك الاموريين الذين في عبر الاردن غربا وجميع ملوك الكنعانيين الذين على البحر ان الرب يبس مياه الاردن من امام بني اسرائيل حتى عبرنا ذابت قلوبهم ولم تبق فيهم روح من جراء بني اسرائيل » . (١١) فالاله علم شعبه المختار من قديم فنون الحرب النفسية كما ترى وتعاون مع ذلك الشعب في اخراج بعض فصولها عملا على الا تعود في احد « روح من جراء بني اسرائيل ». لكن الاله لم يكن يتعاون مع شعبه السفاح ويصنع له المعجزات مجانا. فقد عاود الاله ولعه القديم بلحم غرلة ذلك الشعب الذي تدله في حبه ، ولذا فانه ــ بعد ان تعاون مع يشوع كل ذلك التعاون المثمر ــ جاء وقال له اسمع يا يشوع، الحق حق . انظر ماذا فعلت من اجلك. والان عليك ان تصنع من أجلي معروفا انت ايضا . عليك ان تصنع لنفسك « سكاكين من صوان وتختن بها بني اسرائيل من جديد » . ويقول الذهن المحموم الذي كتب هذا الهذيان : « وهذا هو السبب في تختين يشوع بني اسرائيل في القلف . ان جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور جميع رجال الحرب ماتوا في البرية على الطريق بخروجهم من مصر». (١٢) وبعد ان تختن اليهود بسكاكين من صوان (ويصور لنا المستر ستيوارت هنا « الالم الذي يقطع نياط القلوب الذي عانوه المساكين من جراء تختينهم بسكاكين من صوان حرصا منهم على عهد الاله » (١٣) ،وعملوا الفصح في اليوم الرابع من الشهر مساء بالقرب من اريحا ، واكلوا من غلة الارض في الغد بعد الفصح فطيرا وفريكا ،فاكلوا من محصول ارض كنعان في تلك السنة ، رفع يشوع عينيه ونظر ،« واذا برجل واقف قبالته وسيفه مسلول بيده ، فسار يشوع اليه وقال له هل انت لنا او لاعدائنا (اهل اريحا المساكين الذين لم يفعلوا شيئا الا انهم كانوا اصحاب ارض اشتهاها العم يشوع)فقال الرجل الشاهر سيفه بيده كلا بل انا رئيس جند الرب.الان اتيت . فسقط يشوع على وجهه الى الارض وسجد (انظر الى التقوى والخشوع !) وقال له بماذا يكلم سيدي عبده ؟ فقال رئيس جند الرب ليشوع اخلع نعلك من رجلك لان المكان الذي انت واقف عليه مقدس . ففعل يشوع ذلك ».(١٤) وسنعرف عما قليل لماذا هو مقدس ذلك المكان . لكثرة ما سوف يراق فيه من دم . فابتداء من تلك النقطة بهذا السفر الدموي الذي اكتفى المستر ستيوارت بتناق فكري يحسد عليه باستشهاد مؤلم واحد منه عن الالم الذي عاناه اليهود المساكين من جراء التختين ، تتحول الحكاية الى حفلة قصف خمرها دماء البشر وشواؤها لحمهم المزق ، بامر من الاله الذي ارتاح وهدأ لما قطع اليهود من جديد لحم قرلتهم فقرر ان يكافئهم بتلك الوليمة الرهيبة !

« وكانت اريحا مغلقة ومقفلة بسبب بني اسرائيل . لا احد يخرج ولا احد يدخل . فقال الرب ليشوع .انظر . لقد دفعت بيدك (لقد جعلت ملك يمينك) اريحا وملوكها جبابرة الباس . تدورون دائرة المدينة جميع رجال الحرب . حول المدينة مرة واحدة . هكذا تفعلون ستة ايام . وسبعة كهنة يحملون ابواق الهتاف السبعة امام التابوت. وفي اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالابواق. ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف عند استماعكم صوت البوق ان جميع الشعب يهتف هتافا عظيما فيسقط سور المدينة من مكانه ويصعد الشعب كل رجل مع وجهة » .(١٥) فالرب يضع خطة المذبحة ليشوع السفاح وشعبه الجائع الى ارض الاخرين وذهبهم وفضتهم ، ويضع له ايضا الخلفية المسرحية التي تنفذ الخطة ازاءها. وهو ما زال اليهود ينفذونه حتى اليوم بحرفيته : كلما هموا ببلد او ارض مثلما هموا باريحا ، اكثروا من الشعائر والعصابات الغيبية والنواح والتوجع وصاحوا صياحا عظيما يرتج الجميع وشتت انتباههم حتى تكون المذبحة قد وقعت وبدأت الاغتصاب امرا واقعا . وبهم اريحا قال يشوع بن نون خادم موسى « الذي كان قد امتلأ روح حكمة لأن موسى وضع موسى عليه يديه » (١٦) ، لشعبه المختار « اهتفوا لان الرب اعطاكم (اريحا) فتكون المدينة وكل ما فيها محرما (ذبيحة)للرب. راحاب المومس فقط تحيا هي وكل من معها في البيت لانها خبأت المرسلين (الجاسوسين) اللذين ارسلناهما (وانظر فقط جزاء من يلوذ باهاب الشعب المختار : ينجو من الذبح) .. وكل الفضة وآنية النحاس والذهب والحديد تكون قدسا للرب وتدخل في خزانة الرب .. (ودخلوا) المدينة ، واخذوها ، وحرموا (ذبحوا) كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف. واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها . انما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب «.. وكان الرب مع يشوع وكان خبره في جميع الارض » .(١٧) فازرق الناب بن جوريون لم يذكر يشوع وامجاده التي اعادها جيش « الدفاع » الاسرائيلي اعتباطا . لانه بعد اريحا قال الرب ليشوع « قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وارضه ، فتفعل بعاي وملكها كما فعلت باريحا وملكها . غير ان غنيمتها وبهائمها تنهبونها لانفسكم . اجعل كمينا للمدينة من ورائها .. وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف حتى

---

(٨) نفس المرجع ، الاصحاح الثاني ــ ١٢/١ .
(٩) نفس المرجع ، نفس الاصحاح ، ٢٩ .
(١٠) نفس المرجع ، الاصحاح الثالث ــ ١٦ / ١٧ .
(١١) نفس المرجع ، الاصحاحان الرابع والخامس .
(١٢) نفس المرجع ، الاصحاح الخامس ــ ٤/٢ وما بعدهما .
(١٣) دزموند ستيوارت ، « هرتسل » :
« The Joshua account has , as a penultimats incident , a sentence with the ring of agonizing truth . « When the circumcising of the whole nation was over , they stayed to rest in the camp till they were well again. » When adults are circumcised in unhygienic surroundings , etc . » (P. 14)

(١٤) العهد القديم ، الاصحاح الخامس من سفر يشوع ــ١٥/١٣.
(١٥) نفس المرجع ، الاصحاح السادس ــ ٥/١ .
(١٦) العهد القديم ،سفر التثنية ،الاصحاح الثالث ــ ٩ .
(١٧) العهد القديم ، سفر يشوع ، الاصحاح السادس ــ٢٧/١٦.

فنوا ان جميع اسرائيل رجع الى عاي وضربوها بحد السيف . فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر الفا ، ويشوع لم يرد يده التي مدها بالمزراق حتى حرّم (ذبح) جميع سكان عاي . لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها اسرائيل لانفسهم حسب قول الرب الذي امر به يشوع » .(١٨) وبعد اريحا وعاي مدن كثيرة . فقد « ضرب يشوع كل ارض الجبل والجنوب والسهل والسفوح، ولم يبق شاردا ، بل حرّم (ذبح) كل نسمة كما امر الرب اله اسرائيل ..» (١٩) فالحقيقة انه سفر دموي ، وللمستر ستيوارت عذره في عدم الاستشهاد منه ، ذلك السفر بشيء ، الا بما يشير الى الالم الشديد الذي عاناه اسرائيل من جراء الخطان الثاني . وللمستر بن جوريون كذلك عذره في الاشارة اليه ، ذلك السفر الدموي عينه وهو يتغنى بامجاد جيش الدفاع الاسرائيلي . وحقيقة يا مستر ستيوارت جمع المستر هرتسل بين مفهوم الدولة الغربي (شديد التحضر) وبين احلام اليهود . ولكن الم يكن يجمل بنا ان نتساءل اي احلام هي ؟

الاحلام ، والاغاني ، والخرافات ، والاشرطة الملونة

ومع ذلك ، فان دزموند ستيوارت ليس ساذجا بكل ذلك القدر. فهو يخبرنا انه بعد انتصار البروسيين على الفرنسيين في سيدان واستسلام نابوليون الثالث ، « تغير دوري ، منذ تلك اللحظة ، فبات تيودور ، ولن نعود بعد ذلك نرى اسم تيفادار الهنغاري . ومنذ تلك اللحظة ، حتى نهاية مراهقته ، سيصبح كل ابطاله ، او اقنعته التي تنطق من خلالها افكاره ، المانا ، اما بالمولد، واما بالعماد .. وفيما بعد ، عندما التفت الى الوراء ناظرا الى تلك الاحداث التي تواكبت مع السنوات المبكرة من حياته ، قال : ومن اي شيء صنعت تلك الامبراطورية الالمانية ؟ من الاحلام ، والاغاني ، والخرافات ، والاشرطة الملونة . فكل ما فعله بسمارك انه هز الشجرة التي زرعها اصحاب الرؤى لتتساقط ثمارها » .(٢٠) ولقد كان بسمارك ثاني بطل يشعل خيال الفتى تيودور هرتسل . اما الاول فكان الافاق الفرنسي فردينان د لسبس . ولا نظن ان ستيوارت ساق هذا القول اعتباطا : « كان بطله الاول ذلك الامبرزاريو « Impresario » العظيم فردينان د لسبس . والواقع ان لفظة « امبرزاريو » هذه التي استخدمها الشاعر جون بدني في وصف د لسبس مطابقة لمقتضى الحال تماما (٢١) . فالرجل الذي سيطرت انجازاته على ذهن تيودور هرتسل خلال السنوات التسع الاولى من حياته لم يكن متخصصا في اي علم بعينه ، دع عنك الهندسة بوجه خاص . ومع ذلك فانه كان مثالا للرجال الذين غيروا وجه العالم في القرن التاسع عشر . فد لسبس ان كان قد افتقر الى العلم والمؤهلات الاكاديمية ، لم يفتقر الى العبقرية والموهبة . وقد تمثلت عبقريته في التمسك باهداب رؤية معينة لم يتخل عنها ، وتمثلت موهبته في الوسائل « الدبلوماسية » التي جعلت وضع تلك الرؤية موضع التنفيذ امرا ممكنا . ولقد كان الرجل انتهازيا ملهما ..» (ص ٣٢) .

وبالنسبة للبطلين اللذين الهبا خيال هرتسل في مطلع حياته ، يستخلص ستيوارت عنصرين هامين : في حالة د لسبس ، « كان مشروع قناة السويس اهم تدخل انساني متطرف لتغيير التكوين الجغرافي في التاريخ كله » (نفس الصفحة) وفي حالة بسمارك ، كان الرجل هو « الذي قام بحياكة المانيا الممزقة بابرته الحديدية ببراعة فائقة حتى لم يعد من الممكن رؤية الرقع التي حيكت معا » (ص ٣٦) والكلمات لهرتسل ذاته من يومياته الكاملة . والواضح طبعا ان « التدخل المتطرف جغرافيا » ولم شمل « امة ممزقة » لا يمكن اغفال اهميتهما بالنسبة لما انتهى اليه فكر هرتسل . الا انه من الواضح ايضا ان هناك ادراكا لا يخفى من جانب ستيوارت للعنصر المسرحي (البالغ الاهمية) في الحكاية كلها . وخذ مثلا قوله « الامبرزاريو » د لسبس ، واختياره لقول هرتسل ان الامبراطورية الالمانية (التي حاكها بسمارك بابرته الحديدية) صنعت من الاحلام ، والخرافات (fantasies) والاغاني والاشرطة الملونة .

والعنصر المسرحي اعتبار تيقظ اليهود لاهميته من قديم . حتى مذابحهم التاريخية الكبرى وحوادث السطو والاغتصاب التي قاموا بها المرة بعد المرة في سبيل مجد الاله وملء خزانته من اموال غيرهم من الشعوب والتي تحفل بذكرها وتزهو صفحات العهد القديم ، اخرجت اخراجا مسرحيا بارعا . ولا غرو ، فحسبما يقوله ذلك العهد الدموي كان مخرجها الاله ذاته ! وان عبرنا السنين ، من مذابح يشوع السفاح، الخادم الذي جعله وقوف ابيه على خبايا سيده ، زعيما لليهود ، الى احلام دوري هرتسل، رجل الاحلام والاعمال ، الى كلمات « بنّاء الدولة » ديفيد بن جوريون ، في مقال له عن غزوة من غزوات جيش الدفاع الاسرائيلي، لوجدنا ذلك الوعي بقيمة العنصر المسرحي حيا وماثلا في كل جريمة يرتكبها ذلك الشعب الذي يتمسح قوم المستر ستيوارت بمؤخرته لانه شعب مضطهد ومسكين :

« ان حملة سيناء (١٩٥٦) قد رفعت مكانة اسرائيل في العالم .. فدولة اسرائيل باتت الان ، ولاول مرة ، ماثلة على خريطة العالم بوصفها عاملا هاما يقام له وزن . ولقد بات العالم يدرك اننا لسنا قوة من سقط المتاع .. واني لا اعتقد ان هناك جيشا يلقى من المديح والتقريظ من جانب الراي العام العالمي ما يلقاه الان جيش الدفاع الاسرائيلي »(٢٢).

ولقد قال بن جوريون ذلك في اعقاب قوله ان جيش الدفاع الاسرائيلي ذاك قد اعاد امجاد يشوع والملك داود ، وقد قال هذا وذاك متحدثا عن حملة سيناء التي قامت بها اسرائيل بالتواطؤ مع بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٥٦ ، وانقسم البريطانيون على انفسهم بسبب خطتها وما انطوت عليه من سفالة على مستوى دولي لم يسبق له مثيل . ويقول الكاتب اليهودي الكندي الذي آورد الاستشهادين في كتابه عن بن جوريون :

« فهو ليس بغافل عن الكسب الذي يحققه النصر العسكري في مجال سياسة الامر الواقع والعلاقات العامة (ولذا) يعود مئات وآلاف الى الامجاد القديمة .. راغبا في اعادة خلق حلقة وصل مع الوجود الاسرائيلي المستقل ، بادئا بابراهام الذي لم يقاتل طلبا للغنم المادي بل عملا على حماية قومه ، مارا بكل مراحل التجربة التوراتية القائمة على غزو البلدان واقتطاع الممالك من الارض . والاسطول، مثلا ، ليس مجرد تشكيلات من السفن ، بل اعادة خلق لتقاليد ملوك اليهودية ، ومهمته ليست فقط حماية الممرات البحرية لاغراض الدفاع وجلب المهاجرين ، بل ان له قيمة اخرى لا تقل عن استزراع الصحراء وجعلها تزهر . فالواقع ان الوثبة الكبرى الى الوراء عبر ١٩٠٠ سنة واكثر من التاريخ الى تلك المرحلة التوراتية التي حفلت بالبطولات واتصفت بالاستقلال والتحرر من النير الاجنبي ، من ناحية ، والقفزة المسيانية الى الامام ، من الناحية الاخرى ، تمثلان الجهتين القرينتين لبوصلته التاريخية التي توصل بن جوريون باستخدامها من قيادة السفينة عبر مياه الحاضر.. ولقد قال ان الاختبار الاعظم لدولة اسرائيل لن يتمثل في قوتها العسكرية والاقتصادية فحسب ، بل وقبل هذه وتلك في الصورة التي تضفيها على مواطنيها » (٢٣) .

فالعنصر المسرحي والعلاقات العامة والصورة التي تضفيها دولة

---

(١٨) نفس المرجع ، الاصحاح الثامن ــ ٢٧ .

(١٩) نفس المرجع ، الاصحاح العاشر ــ ٤٠ .

(٢٠) دزموند ستيوارت ، هرتسل ، ص ٣٦ .

(٢١) John Pudney , « Suez : de Lessep's Canal » London , Dent , 1968 , P . 20 , quoted by Desmond Stuart , P . 32 .

(٢٢) افراهام آفي ــ هاي ، كتابه عن بن جوريون ، المرجع السابق الاشارة اليه، ص ٤٣ .

(٢٣) نفس المرجع ، ص ص ٤٣ ــ ٤٥ .

اسرائيل على نفسها وعلى مواطنيها لتعمي بها عيون البشر وتذهلهم هي اشرطة هرتسل الملونة وخرافاته واغانيه . ولكن ماذا عن الاحلام؟ فيما يخص الاحلام :

« ..كان بن جوريون ينصح دائما بالمطالعة الدقيقة لسفر «الخروج» طلبا للحكمة السياسية العظيمة ، وبخاصة تلك الآيات المتعلقة باستيطان الارض قليلا قليلا بعد ان يخرج منها الكنعانيون (اي العرب في هذه الايام) على دفعات ،خوفا على الارض من ان تخرب وتعمرها الوحوش ...(٢٤) .

والآيات التي كان ينصح بن جوريون بتعلم الحكمة السياسية العظيمة منها تقول :

« ارسل هيبتي امامك وازعج جميع الشعوب الذين تاتي عليهم واعطيك جميع اعدائك مدبرين . وارسل امامك الزنابير فتطرد الحويين والحيثيين والكنعانيين من امامك . لا اطردهم من امامك في سنة واحدة لئلا تصير الارض خربة فتكثر عليك وحوش البرية . قليلا قليلا اطردهم من امامك الى ان تثمر وتملك الارض . واجعل تخومك من بحر سوف الى بحر فلسطين ، ومن البرية الى النهر . فاني ادفع الى ايديكم سكان الارض فتطردهم من امامك . لا تقطع معهم ولا مع الهتهم عهدا . لا يسكنوا في ارضك لئلا يجعلوك تخطيء الي؟» (٢٥) .

والكلام موجه الى نبي" الله موسى عليه السلام ، والكلام واضح. قليلا قليلا الى ان تثمر (تتكاثر) وتملك الارض واجعل حدود تخومك الامنة كذا الى كيت ولا يسكنوا معك في ارضك لئلا يدنسوك ،فحولهم كلهم الى لاجئين ، قليلا قليلا حتى تستلم الارض منهم مزروعة وصالحة للاستيطان لا خربة .

فمن الاحلام والخرافات عد الى العهد القديم ، او كما يقول الكاتب اليهودي الكندي ،الى ما قبل ١٩٠٠ سنة واكثر من التاريخ اليهودي المجيد . ولكن منذا الذي يمكن ان ينفذ الى اسرار ذلك العهد الرهيب الا شعب آلاله المختار اذ يعود فيستوطن ارضه .

« فقط للشعب الذي يستوطن ارضه من جديد ويمتزج بصورتها كما تشع من كل صفحة من صفحات سفر الاسفار (العهد القديم) وتصبح لغة ذلك الكتاب لغته الطبيعية التي بها يفكر ويحلم ، يعلم منه او بغير علم ، فقط لهذه الامة سيكشف الكتاب عن خبايا اسرار قلبه واعماق روحه ، واذ ذاك سوف تتوحد روح الكتاب بروح الشعب » (٢٦) .

فللمستر ستيوارت وغير المستر ستيوارت العذر في انهم لا يرون ولا يفهمون ، ولكن ما ذنبنا نحن حتى نؤخذ بجريرة عدم رؤيتهم وعدم فهمهم ؟ وهل ينبغي ان ننتظر الى ان يكتووا بالنار هم ايضا حتى يفيقوا وتنجاب غشاوة اثر غشاوة تطمس اليوم عقولهم وتعمي ابصارهم؟ لكنا اذا انتظرنا ذلك اليوم الذي يصحو فيه المتحضرون اللبراليون المتسامحون واليهود يحر"مونهم هم ايضا ان نكون قد بتنا الا ذكرى حزينة لشعوب بادت وانقضى امرها . فليعذرنا السادة الاوربيون المتحضرون اذا نحن لم نسر على دربهم المتألقة المهذبة المتعالية ، لان الامر الان ،في هذه المرحلة ، متعلق ببقائنا نحن ، وليسمح لنا المستر ستيوارت وهو جالس مستريح في حمى كتبه وموسيقاه الكلاسيكية وفليونه وتحضره البريطاني الانيق حيث لا تعبث يد عربية غليظة ببريده المقدس ان ناخذ منه كلمة الاحلام المسيانية الجميلة ونمعن النظر فيها بفلقة عربية غير متألقة لنرى اي احلام دموية هي !

يقول بن جوريون انه « بينما كانت اعين كل امم العالم القديم منقلبة وراء الى الماضي ، كانت اعين الشعب اليهودي مشدودة ابدا الى الامام ، الى رؤية آخر الزمان » .(٢٧) فهي حكاية فلسفة التاريخ

(٢٤) نفس المرجع ، ص ٤٥ .
(٢٥) العهد القديم ، سفر الخروج ،الاصحاح ٢٣ ـ ٢٧/٣٣ .
(٢٦) افراهام آفي ـ هاي ،ص ٤٦ .
(٢٧) نفس المرجع . ص ٤٩ .

مرة اخرى وحلم الفردوس الارضي في اخر الزمان . وفي العهد القديم، في سفر اشعياء النبي يوصي الرب شعبه المختار بذلك ، فيقول له : « لا تذكروا الاوليات ، والقديمات لا تتاملوا بها . هانذا صانع امرا جديدا . الان ينبت . الا تعرفونه ؟ أجعل في البرية طريقا في القفر انهارا .. هذا الشعب جبلته لنفسي . » (٢٨) فما هو الجديد الذي يعده الرب لشعبه الذي جبله لنفسه؟ « هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها باسط الارض ونتائجها .. انا الرب قد دعوتك بالبر فامسك بيدك واحفظك واجعلك عهدا للشعب ونورا للامم لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة . انا الرب هذا اسمي ومجدي لا اعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات . هوذا الاوليات قد أتت والحديثات انا مخبر بها . قبل ان تنبت اعلمكم بها .. ايها الصم اسمعوا . ايها العمي انظروا لتبصروا .. لا تخف (يا اسرائيل) لاني فديتك . دعوتك باسمك فانت لي .اذا اجتزت في المياه فانا معك وفي الانهار فلا تغمرك . اذا مشيت في النار فلا تلذع واللهيب لا يحرقك . لاني انا الرب الهك قدوس اسرائيل مخلصك . جعلت مصر فديتك ، كوش وسبا عوضك . لا تخف فاني معك. اعطي اناسا (شعوبا) عوضك . من المشرق آتي بنسلك ومن المغرب اجمعك . اقول للشمال اعط وللجنوب لا تمنع . ائت ببنيي (ابنائي) من بعيد وببناتي من أقصي الارض » (٢٩) .

هذا يفسر لنا احلام اليهود المسيانية بعض الشيء فيما نظن .ولكن لكي نفهم اكثر ما انطوت عليه حكاية الاحلام والخرافات ، يحسن ان نصغي من جديد لكاتب سيرة بن جوريون وهو يتساءل :« اي شيء هي الرؤية المسيانية ؟ (ولفظة مسيانية ماخوذة من لفظة مسيح) (٣٠) . اذا عرينا الرؤية من التجسيد المتمثل في شخص المسيح المنتظر ، ذلك التصور الذي اشتركت فيه اليهودية والمسيحية بعض الوقت ، فانها تصبح رؤية لحقبة يكون خلاص الشعب اليهودي فيها بعودته الى ارضه بداية تسبق خلاص النوع البشري كله .فاورشليم (القدس) التي تقوم من جديد ستصبح مركزا لتعليم الاخلاق العالمية وتصبح صهيون بؤرة « لكلمة الرب » . ووقتها سيسود السلام الابدي « فلن تعود امة ترفع السيف في وجه اخرى ،بل ولن تعود الامم تتعلم الحرب بعد ذلك » (٣١) او كما اوضح بن جوريون مؤخرا ، لن تصبح الحرب محرمة قانونا فحسب ،بل وستصبح العلوم العسكرية ممنوعة ».(٣٢) وذلك امر طبيعي . لانه سيكون من مصلحة الشعب المختار ـ بعد ان يبسط سيادته على العالم ويجعل من القدس عاصمة روحية له ـ ان يمنع الشعوب الامية المستعبدة من ممارسة الحرب او تعلم فنونها لئلا تحاول ان تسترد انسانيتها من براثنه . « ويقول بن جوريون ان هذه الرؤية المسيانية ، رؤية اسرائيل التي استردت ملكها واستعادة شعبها واحيت الامجاد التوراتية القديمة الخلاقة ،هي التي اقتحمت اليهود احياء ، واجتذبت كل مهاجر الى اسرائيل حتى وان كان في نفس الوقت قد هاجر من المكان الذي كان مشتتا فيه هربا من الاضطهاد .» (٣٣) فاليهود لم يأتوا الى اسرائيل هربا من اضطهاد الاوربيين أيا بقدر ما اتوا لتنفيذ الرؤية التوراتية المجموعة المخصبة

(٢٨) العهد القديم ، سفر اشعياء ، الاصحاح ٤٣ ـ ٢١/١٨ .
(٢٩) نفس المرجع ، الاصحاح ٤٢ ـ ١٠/٥ و ١٨ والاصحاح ٤٣ ـ ٧/١ .
(٣٠) المسيح المنتظر الذي حلم به اليهود ، والمفروض انه سيأتي ليحملهم بمعجزة الى الارض الموعودة !
(٣١) وقد اوضح بن جوريون ذلك في كلمة القاها امام دورة للجمعية العامة للوكالة اليهودية ، عقدت بالقدس المحتلة في٢٣ يونيو ١٩٧١ . انظر افراهام افي ـ هاي ، ص ٤٧ وص ٢٩٧ .
(٣٢) افراهام آفي ـ هاي ، المرجع السابق ،ص ص ٤٦/٤٧ .
(٣٣) نفس المرجع السابق ، ص ٤٧ .

بالدم التي تصبح مصر وغير مصر من الامم بموجبها « فداء لهم وعوضا عن نفوسهم » . وعندما تكون الضحايا قد اكتملت عددا على مذبح الاله ،شعبا بعد شعب،وارتوت اراضيها المنهوبة من دمائها ،«ستصبح اسرائيل ،في الفردوس الاتي في اخر الزمان ، نورا للعالم وخلاصا لشعبها » .

ولقد اهتمالمستر ستيوارت اهتماما خاصا بان يؤكد لنا ان تيودور هرتسل كان يحصل على درجات سيئة في مادة الدين (ص٣٧). وبنفس الروح الطيبة اللطيفة يرجع اهتمام هرتسل بقناة السويس والافاق الذي قام بحفرها الى انسحاره بمنجزات العلم المثيرة للخيال ، والدليل على ذلك ان تيودور قرأ بنهم روايات جول‌فيرن التي من نوع « الخرافة العلمية »، مثل « خمسة اسابيع في منطاد »، و« رحلة الى مركز الارض » ،و « من الارض الى القمر » ، و « عشرون الف فرسخ تحت سطح البحر » . ويقولالمستر ستيوارت : « ولقد كانتالدرجات السيئة التي حصل عليها تيودور في مادة الدين ذات مغزى في ضوء مستقبله.وهي ـ اذا ما نظر اليها فيسياق عصره ـ تبدومتوقعةمنشاب متحرر الفكر غير متدين freethinking عاصر ماركس‌ودارون.» (ص ٣٧) لكنه ـ على سبيل الحرص ربما ،او على سبيل الايضاح بغير أن يتهم من يكتب سيرته (وهو هرتسل لا أقل) بالانتهازية ـ يضيف بعد ذلك القول مباشرة قوله : « الا انه ،فيما بعد ، عندما بات ملتزما بقضية ذات مضامين دينية ، اعطانا ،في سيرة ذاتية قصيرة وفي مصارحات مع احد حواريه ،ثلاث روايات عن موقفهمن الدين في طفولته .. لكن تلك الحكايات لا يجب ان تؤخذ ماخذا حرفيا ، لانه كتبها ولسانه في شدقه كما يقولون . والحقيقة ان الهيومر المستدق في سيرة هرتسل الذاتية لم يتذوقه كثيرون كما كان ينبغي لهم ان يتذوقوه .. ولقد كان الفتى ممزقا بطريقة غير متكافئة بين تراثه الموسوي وتراثه الجوتوي (نسبة الى جوته) ! (ص٣٧ـ٣٨) ولكي يعطينا ما يمكن أن يوصلنا اذا شئنا الى حقيقة موقف هرتسل من تراثه الديني (وستيوارت جاهد هنا في تصوير الشخصية التي يرسم خطوطها كشخصية انسان ليبرالي متحرر عديم التعصب لا تهمه حكاية الدين هذه بالحقيقة كثيرا كأي بريطاني بروتستانتي متسامح مهذب) يسوق استشهادا طويلا اكثر مما يحتمل المجال ، لا عن هرتسل ذاته ،بل عن شاب يهودي من معاصريه كان هو الاخر ممزقا بين موسى وجوته المسكين كتب يقول في سيرة ذاتية له بعنوان « حياتي كيهودي والماني » ان مادة الدين بالمدارس الالمانية لم تكن مادةسارة. وذلك امر يحسه كل صبية المدارس فيكل مكان وزمان ولا يعني شيئا الا انهم يفضلون ان يكونوا خارجا يلعبون الكرة . لكن المسالة هنا متعلقة بشخص اسمه يعقوب ، ويعقوب فاسرمان ، فلا بد ان يكون ما يقوله جليلا وذا وزن . ويضيف العم فاسرمان قائلا (متحدثا من تجربته الخاصةالمحدودة مع معلم الدين بمدرسته ولا شك) ان درس الدين درس بلا روح يقوم بتدريسه عجوز بلا روح ، ولذا فالدرسيكون « هزيلا ، ميتا ، ومحنطا » .. الخ (ص ٣٨) . غير ان ذلك لا شان له بهرتسل،ولايعطيالقارىء اي معلومة ذات صلاحية عنه . لان الاستشهاد هو عن شخص اخر . ومع ذلك وجد المستر ستيوارت من الضروري ان يستشهد به لا ندري لم ؟ الكي يدلل على ان هرتسل لم يكن متعصبا دينيا ؟ ولكن الم ير المستر ستيوارت انه في غمرة اهتمامه بتصوير هرتسل على صورته هو (اى صورة الاوربي المهذب « الذي لا يحب هذه الاشياء كالتعصب وما اليه »)نسي انه بذلك يتهم هرتسل بالنفاق وباستغلال دياناته التي لم يكن مهتما بها كثيرا على حد قول المستر ستيوارتفي اقامة مذهب سياسي انبنى عليها أساسا ، وعندما فعل ذلك وحدمن الضروري ان يرتكب الناس فيما يخص معتقداته الايمانية فاغلاهم تلك الروايات الثلاث التي يتحدث عنها المستر ستيوارت ؟فهل يريد المستر ستيوارت ان نقول ان هرتسل كان انتهازيا دينيا وسياسيا واخلاقيا ؟ لا نظن . والذي نظنه ان المستر ستيوارت نفسه هو الذي وجد انه واقع في ورطة لا هرتسل . فالاخير كان متسقا مع نفسه وكان يعلم جيدا ما يريد ويعرف كيف يتوصل اليه . اما المستر ستيوارت فيكتب عن هرتسل بروح المتحضر الليبرالي المتسامح البعيد عن التعصب او استخدام الدين في اغراض سياسية ، فكيف يكون « بطله » متعصبا يهوديا يصدر عن احلام العهد القديم الدموية ويسعى الى اهداف العهد القديم التي لا موارية فيها ؟ ولذا فان المستر ستيوارت ـ بالحقيقة ـ يدخل في تبريرات وتخريجات ما كان اغناه عنها :« ومضات من النور جاءت الى هرتسل من عصر الاصلاح الديني اكثر مما جاءته من العهد الجديد. ولقد كانت احدى قصائده المبكرة حول مارتن لوثر ، القومي الالماني وسلف بسمارك في الكفاح الثقافي ضد الكنيسة الكاثوليكية .»(ص٣٨) بطبيعة الحال . وما الذي يثبته ذلك ؟ الا يرى المستر ستيوارت ان عصر الاصلاح الديني الذي فصل الدين عن الدولة في اوروبا فكان بداية النهاية للنظام القديم دولة وكنيسة ونمهيدا لبزوغشمس النظام الرأسمالي الجديد كان فاتحة خير لليهود الذين يقول ان « حيطان الجيتو كانت قد تهاوت من حولهم في حياة جد الفتى تيودور، وان اخر جيتو في القرن التاسع عشر ،جيتوروما ،زال من الوجود بعد مولد تيودور بسنوات قليلة » (ص١٨) ، الا يرى المستر ستيوارت ذلك حقيقة ؟ وحقيقة ايضا لا يرى اهمية مارتن لوثر لليهود ولبزوغ النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي حررهم وتقبلهم واخرجهم من وراء أسوار الجيتو ؟ ولا يرى أيضا ، المستر ستيوارت ، الخطر الذي تمثله الكنيسة الكاثوليكية في ذلك المدار كله ؟ والفضيحة التي اقامتها الصهيونيون بطون كتابها حول تواطؤ بابا الفاتيكان مع عصبة مائلة في الاذهان . والصحف البريطانية ما زالت تجتر ما حشى به الصهيونيون بطون كتابها حول تواطوء بابا الفاتيكان مع عصبة هتلر البربرية ابان الحرب العالمية الثانية فيما يتعلق بعمليات‌قتل اليهود ، فلزم الصمت حيالها . ونحن ابعد ما نكون عن خداع النفس باية آمال بلهاء حول بطولات فدائية يقوم بها الفاتيكان او غير الفاتيكان بالنسبة لقضايا بقائنا أو فنائنا . ولقد اوشك الفاتيكان منذ وقت ليس ببعيد ان ينساق فينضوي هو ايضاويصدر وثيقة تبرئة اليهود مجازفا في سبيل ذلك باعلان ضمني يقول ان العهد الجديد ـ ما دام قد كذب بذلك الخصوص ـ كذب من اول الى اخر كلمة فيه . لكننا نسأل المستر ستيوارت على سبيل التذكرة والتنبيه فقط ، لانه يبدو سادرا ، ببراءة بريطانية متحضرة للغاية ومحببة ،في تحويل ارتباطات المصلحة الصهيونية في فكر هرتسل وساساته الى ادلة على معان غريبة نستشفها من هذه الاسطر الممتعة بحق:((عندما) حل يوم التشت اليهودي « bar mitzvah » بالنسبة للفتى تيودور، استخدمابواه اللفظةالمسيحية (confirmation) في بطاقات الدعوة، وكان ذلك مطابقا لمقتضى الحال ، لان كلا النوعين من الطقوس كانا قد فقدا كثيرا من قوتهما الاولى . فالفتى المسيحي الذي يمر بذلكالنوع من الطقوس مرتديا افضل ثيابه يقف امام الاسقف الذي يثبته وهو لا يكاد يثبت انتباهه الا في لحظات عابرة متقطعة على تلك المناسبة في الماضي البعيد باورشليم وقد وقف حواريو المسيح بقلوب هزتها الفجيعة .. وبالمثل فان يهود القرن التاسع عشر كانوا ، فيما يحتمل ، لا يركزون ـ اثناء الطقوس اليهودية المقابلة ـ الا بمثل ذلك الانتباه البهم المشتت على دراما سيناء وموسى ينزل من فوق الجبل حاملا لوح الناموس ، وفي العصور الوسطى التي يمكن تعقب بداية تلك الطقوس اليهودية الخاصة بالتثبيت فيها ، كان الفتى الذي يمر بتلك الطقوس يقف معلنا التزامه بمراعاة ٦١٣ قاعدة هي قواعد القانون الموسوي .. غير انه في وقت هرتسل كانت المسالة قد باتت قاصرة على ترديد بضعة آيات بالعبرية من الناموس . وكان الاهتمام في مثل تلك المناسبات قد بات منصبا على الحفل الذي يقام بعد طقوس العيد في البيت . وفي البيت كانت لدى آل هرتسل

مشاغلهم . فقد استثمر يعقوب هرتسل ، الاب ،ثروته في عملية متعلقة بالاخشاب التي كانت تغطي أكثر من ربع مساحة المجر ..» (ص٣٩-٤٠) والحقيقة اننا لا ندري فيم اهتمام المستر ستيوارت بحكاية التدين هذه كل هذا الاهتمام ، وكأن كون المرء متدينا تهمة يجب ان تدفع عنه، اللهم الا اذا كان المستر ستيوارت يرى ان لها في حالة « بطله » بالذات مغزى اخطر من مجرد تدين اي انسان ». (وهكذا) فان آل هرتسل لم يقطعوا ما بينهم وبين الدين ، لكنهم لم يعطوه ايضا تلك المكانة في حياتهم التي كان يتطلبها . وبوضعهم الدين ذلك الموضع المحدود من نسق حياة حضرية معقدة كانوا يهزمون مقاصد احبار ما بعد المنفى الذين قاموا بتقنين الشريعة الموسوية . فقد ابرز الاحبار عمدا تلك العناصر المحرجة من شريعة موسى التي تجعل من المستحيل بالنسبة لليهود تقليد الاميين واعطوها مكان الصدارة عملا على ان يذكروا انفسهم وشعبهم بمصير اليهود الفوق طبيعي والمهمة الملقاة على عواتقهم » .(ص ٤١) .

الفارس الصغير

يخبرنا دزموند ستيوارت ، في معرض متابعته الدقيقة للمؤثرات التي باشرت فعلها في صياغة تفكير هرتسل ومواقفه ، ان الشاعر اليهودي الذي اعتنق المسيحية ،هينريش هايني ، احتل المكانة الثالثة بعد د لسبس وبسمارك ، ويقول : « ولقد كان تاثير هايني قويا ، نظرا لاوجه التشابه بينه وبين تيودور . فقد ولد هايني لابوين يهوديين من الطبقة المتوسطة ، في دسلدورف » .. (ومثلما سبق مولد تيودور انهيار حيطان الجيتو في اعقاب الثورة الصناعية).. « شقت جيوش نابوليون ، في صبا هايني طريقها في قلب الدويلات التيكانت تتالف منها المانيا ، و(من خلال ذلك) زلزلت الثورة الفرنسية ،والقائد الشاب (نابوليون) الذي كان مبعوثها ، الاسس الضاربة في القدم لطريقة الحياة الالمانية ، ومن بينها القيود التي كانت مفروضة على اليهود . ومثلما بدأت حياة هرتسل بداية خاطئة بدخوله مدرسة تعده لدراسة الهندسة ،بدأ هايني حياته بداية خاطئة بدخوله في شركة تجارية مع احد اعمامه ما لبثت ان افلست ،ومن ذلك الخطأ انساق الى خطأ اخر ، فالتحق بجامعة بون ثم بجامعة جوتينجن ، لدراسة القانون ، رغم انه ـ مثل هرتسل الذي كان يدرس الرياضيات ـ كان شغوفا بدراسة التاريخ والاداب وليس بدراسة القانون .« فاوجه التشابه مائلة ، كما ترى ،في كون الاثنين يهوديين ، من الطبقة المتوسطة ، وكونهما قد عاشا في المانيا ، وبدأ كل منهما حياته بالانخراط في اهتمامات مغايرة لما كانا يهتمان به حقيقة وهو الادب، وكونهما ، كل في زمانه (وقد مات هايني قبل مولد تيودور هرتسل بسنوات قلائل) عاصرا انقلابات اوربية ادت التغيرات التي نجمت عنها الى تحسن اوضاع اليهود . ويخبرنا ستيوارت بعد ذلك ان هايني اقدم وهو في جامعة جوتيجن على خطوة طالما كان تيودور هرتسل « قد اعمل الفكر فيها باممان » ، فاعتنق المسيحية ، او، كما يقول ستيوارت « خضع او استسلم للعماد باسم الاب والابن والروح القدس » ،ويضيف : « ولقد كانت دوافعه الى ذلك عملية. فقد كان مستوعبا « باللباس ، واللغة ، وطريقة الحياة » ،في الاغلبية الالمانية ، ولذا فانه وقد قبل (بدخوله المسيحية) ان يعلن خضوعه ظاهرا لما رأى انه الميثولوجية السائدة ، لم يفعل اكثر من التقدم الى مرحلة اخرى من مراحل تكيفه للمجتمع الذى كان يعيش فيه . ورغم ذلك فانه لم يتنكر لاصوله اليهودية. والحقيقة ان نقاد شعره لاحظوا دائما تماثلات ووشائج رحم بين استخداماته للتصورات الطبيعية وبين استخدامات الشعراء العبرانيين لها ، بينما اتصف شعره المضمد بذلك « الازدراء الماحق والحس الذي لا يحجر بالعدالة الذي تشارك فيه كل زعماء الجنس اليهودي ».. ولقد كان هايني طيلة حياته مكروها من السلطة في المانيا ، لا بسبب اصله اليهودي ، بل بسبب انتماءاته الليبرالية (التي اعتبرت آنئذ مرادفة للثورية) ، (وهكذا) فانه عندما قامت الطبقة المتوسطة بانقلابها في فرنسا ، سنة ١٨٣٠ ،وجاءت بلويس فيليب ملكا ، هاجر هايني الى فرنسا ،وقدم طلبا للحصول على اعانة من الحكومة الفرنسية ، وحصل على تلك الاعانة بشروط جعلت منه ، في واقع الامر ، مبلغا لدى البوليس الفرنسي .. وفي اواخر حياته اقعده مرض في العمود الفقري فالزمه الفراش ثماني سنين ،حتى مات . وقبل موته كتب قصيدة يعلن فيها حزنه لكونه سيموت منبوذا ، فلن يقرأ عليه احد بعد موته صلاة الموتى اليهودية (الكاديش) او يقيم قداس الموتى المسيحي. ولما كانت الديانة اليهودية تؤكد ان الخطيئة تلقى عقابها هنا ، في هذا العالم ، مثلما تلقاه في العالم الاخر بعد الموت ، فلا بد انه كان من الصعب بالنسبة للشاب تيودور هرتسل الا يرى في ذلك المرض الذي الزم هايني الفراش ثماني سنوات قبل موته عقابا له على اعتناقه المسيحية .. ابتغاء لمكاسب دنيوية .» (ص ٤٣ ـ ٤٤).

ورغم الافاضة ، لا يحدد ستيوارت التاثير الذي باشره هايني على هرتسل ، هل كان تاثيرا في الشعر ، في الادب ،في الفكر ؟ الله اعلم . كل ما هنالك ان الفتى هرتسل وجد في ورطة الشاعر « صدى لورطته ، من حيث ان لفظة« الماني» في حالته كانت تستحق ان توضع بين قوسين » (ص ٤٢)فقد بدا تيودور هرتسل « يفطن الى الواقع فيما يخص مواهبه ، ومزاجه ، ووضعه في المجتمع . فلم تكن لديه امكانية الاستمرار في دراسة العلوم (ليصبح مهندسا)» وقد ادرك ان لوثر وبسمارك هدفين من المستحيل التوصل الى محاكاتهما . وحتى ان قبل الدخول في المسيحية لن يبيت بوسعه ان يامل في ان تتاح له فرصة القيام بدور مبرز في الحياة الدينية او السياسية لاوروبا الالمانية . ولقد كان الوضع في المانيا عكس الوضع في بريطانيا. (التي) كان بنيامين دزرائيلي قد اصبح فيها رئيسا للوزراء ، وعما قليل ،في سنة ١٨٧٦ ، سوف يعلن ملكتها فيكتوريا امبراطورة للهند. ومع ذلك فان يهوديا بريطانيا واحدا (بما في ذلك دزرائيلي الذي كان يؤلف الروايات) لم يكن قد اتيح له بعد ان يصل الى اعلى مكانة في الادب ، الفن البريطاني الرئيسي . وبينما كان ظهور دزرائيلي اخذ في عالم السياسة الالمانية امرا لا يمكن تصوره ، كان اليهود قد بدأوا يدخلون الى اعلى المراتب في الفنون الالمانية » . (ص ٤٢).

والكلام واضح ، فيما نظن . اعلى المراتب . في السياسة . في الادب . في الاقتصاد . ولقد وصف الجنرال ديجول اليهود بانهم شعب « ممتلىء بنفسه ، ومتسلط » (٣٣) ، وقال عنهم اندريه سيجفريد:

« واليهودي ايضا شخص متشائم ، وبشكل صارخ فيما يخص المجتمعات التي ساقه قدره الى العيش فيها ، وبفضل ذلك الانفصام الفكري ،يبيت بوسعه ان يصدر الاحكام على ذلك المصير بنفس الصفاء البارد الذي يتصف به من لا علاقة له بالامر .وتحضرني في هذا المجال تلك الفقرة المشهورة لباريه (Barès) عن بيكود لاميراندولا، التي يقول فيها :« يوجد بين العقول اليهودية قاسم مشترك اعظم يمكن لاي شخص ان يلاحظه بسهولة فيمن يعرفهم من الاسرائيليين ،وهو انهم يتناولون الافكار بنفس الطريقة التي يتناول بها الصيارفة رزم النقود او الاسهم والسندات . فالافكار ، فيما يخصهم ، لا تبدو ، كما هي

---

(٣٣) الجنرال شارل ديجول ، في مؤتمره الصحفي يوم ٢٧ نوفمبر ١٩٦٧ : « ولقد توجس البعض (اثر انشاء اسرائيل) من ان اليهود ، الذين كانوا قد ظلوا حتى ذلك الوقت مشتتين ، وظلوا طيلة الوقت كما كانوا دائما ، اي شعبا مختارا فوق غيره ، ممتلئين بانفسهم ومتسلطين ،قد ينقلبون ،وقد توحدوا ، فيحولون الامال التي ظلوا تتعلقون بها طيلة ما يزيد عن تسعة عشر قرنا : « السنة القادمة في القدس » ،الى طموح مشتعل للغزو » .

الحال فيما يخصها بالنسبة لسائر الناس ،كصيغ يعبرون بها عن نوازعهم وادق التحركات الحميمة لكيانهم ،بل كقطع نقود يفرزونها على لوح من رخام بارد . ولقد لاحظنا ان اليهودي الذي ينتقد المجتمع الذي يعيش فيه لا يفعل ذلك كما لو كان ينتقد امه مثلا ،بل يفعل ذلك بقدر ملحوظ من الافتقار الى الرحمة والتورع. وبالرغم من كل المظاهر التي قد تغري بالاعتقاد بالعكس ، لا يكاد اليهودي يكون ابدا محافظا او تقليديا ،بل ثوريا (بالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه) اما المجال الذي يكون فيه محافظا فتراثه اليهودي فقط، واذ ذاك يكون محافظا بحرارة ولا يعود متعاملا فوق لوح الرخام البارد في السوق التجارية » (٣٤) .

ورغم حديثه عن « ورطة » تيودور هرتسل التي وجد لها صدى في ورطة هايني ، وضرورة وضع لفظة الماني ، فيما يخصهما ، بين قوسين ، يقول ان هرتسل ، عندما غير مدرسته ، والتحق بمدرسة ملحقة بالكنيسة البروتستانتية كانت تعتبر معقلا للقيم الجرمانية ، وجد ان معظم الطلبة بتلك المدرسة كانوا يهودا ، ويضيف قائلا : « ومثل تلك النسبة العالية يسهل تفسيرها ، فقد كان اليهود يشكلون الكتلة الكبرى من الطبقة المتوسطة المجرية التي كانت صغيرة وقتئذ (لكنها صاعدة ، وبسرعة) وكانت كثرة منهم ، كآل هرتسل ، شديدة الالتصاق بالثقافة الالمانية » (ص ٤٥) ولعله كان ينبغي لستيوارت ان يضيف « .. البورجوازية الجديدة » الى قوله« الثقافة الالمانية » لتتضح الصورة ، فهو دائما يترك الصورة مبتورة او منقوصة ، لا ندري لم . ربما عن سهو . واحيانا يلوبها قليلا، لا ندري لم ايضا . ليبدو متحررا ، ربما ، ومعاديا لمعاداة السامية. فهو يفسر الحلف بين اليهود والبروتستانت في اطار الطبقة التي تسلمت المجتمع لادارته لا بالمصلحة الاقتصاديه والتغير الذي طرأ على المجتمعات الاوربية ، بل بتعصب الكاثوليكية ! ولقد كان لدى اليهود من الاسباب ما يجعلهم يحسون انهم اقرب للبروتستانت منهم الى الكاثوليك . فالبروتستانت المجريون كانوا ، كاليهود ، اقلية ، حتى وان كانوا اقلية داخل اطار العقيدة الحاكمة (المسيحية). والاهم من ذلك ان بروتستانت القرن التاسع عشر في اوربا كانوا ،بوجه عام، ليبراليين ، بينما لم يكن رؤساء الكنيسة الكاثوليكية كذلك . » (ص ٤٥) ويلاحظ القارىء انه لم يقل الكاثوليك ،بل « رؤساء الكنيسة الكاثوليكية ». والطريف انه بعد ذلك باسطر قليلة يقول ان المجر كانت تحكمها وتستغلها اوليغاركية كان ضحاياها الاساسيون هم الفقراء لا الاقليات الدينية (اليهود والبروتستانت) الذين كانت احوالهم قد تحسنت كثيرا . (ص ٤٦) ولا يقول لنا ممن كانت تتكون تلك القلة الثرية الحاكمة المستغلة ، حكما مطلقا واستغلالا مطلقا كان ضحاياهما الفقراء ، اي السواد الاعظم من الشعب . ربما من كبار التجار والممولين اليهود المضطهدين المساكين الذين كان ابناؤهم يعانون من ورطة كونهم يهودا ، كآل هرتسل البؤساء الذين لم يتوصلوا الا الى شراء اكثر من ربع غابات المجر فقط ؟ لا يقول . لكنه، المستر ستيوارت ، يحتاط ـ بالحقيقة ـ لنفسه دائما ، فهو يقول بعد ذلك مباشرة ، (لا من عنده هو ، بل استشهادا ،في معظم الامر، من كاتب آخر ،حتى لا يكون الملوم او يتهم بالهمجية)،بقول ان اليهود لم يكونوا قد عادوا يعانون من اية «اعاقات» قانونية ،منذ سنة ١٨٦٧. وقد كانت المعارضة التي واجهتهم ناجمة بقدر كبير من الغيرة التي اثارتها قوتهم الاقتصادية . ولقد كانت اهميتهم ،كما كتب احد المراقبين فيما بعد غير متناسبة اطلاقا مع عددهم ، من حيث انهم احتكروا حانبا كبيرا من النشاط التجاري ، وباتوا هم والالمان سواء اكبر مستخدمين للبد العاملة في المجر ، ولم يتحكموا في مالية البلاد فقط ، بل وفي قدر كبير من نشاط الحكومة وصحافة البلاد ،

(٣٤) Raymond Aron , « De Gaulle , Israel and the Jews » André Deutsch 1969 , London , PP .135 /136

ونتيجة لتبذير ملاك الاراضي المجريين وسفههم ، وفقر الفلاحين ، بدات تربة المجر هي الاخرى تنتقل تدريجيا الى ايديهم . (ص٤٦) فلعلنا نعرف الان من كانت تتالف منهم تلك الاوليغاركية التي حكمت المجر حكما مطلقا واستغلت شعبها . ومع ذلك ، فيما يخبرنا المستر ستيوارت ورغم ان عدد اليهود وصل قرب نهاية القرن التاسع عشر الى خمس سكان بودابست ، فانهم لم يكونوا محطا للكراهية الشعبية التي انصبت على اليهود في فيينا التي كان عددهم فيها لا يتجاوز واحد الى عشرة من السكان.ولقد كانت الاغلبية المسيحية الساحقة هي التي انكرت عليها المجر في ظل آل هابسبورج الحقوق المدنية ». (ص ٤٦) .

ورغم ذلك كله ، فيما يخبرنا المستر ستيوارت ، استجاب تيودور هرتسل للمجر والثقافة المجرية بالرفض وتطلع هو واسرته الى فيينا ، التي يبدو ان فرص الثراء والاستغلال فيها كانت اعظم . لكن المستر ستيوارت يعطينا لذلك الرحيل من بودابست الى فيينا (الذي جاءت مناسبته عندما ماتت ابنة الاسرة بولين بالتيفود) تفسيرا ساميا كالعادة ، فيقول « ان قرار الرحيل الى فيينا يصبح مفهوما اذا ما ركزنا على فيينا نفسها التي كانت قد باتت رمزا للحضارة او الثقافة (kultur) التي كانت قد باتت بدورها بديلا للعقيدة الدينية » ! وبعد صفحة كاملة من التحليلات الترانسندنتالية يقول « واما بالنسبة الى تيودور هرتسل ، فقد كان الرحيل من بودابست يمثل الوداع لمرحلة الصبا ، والصعود الى فيينا يمثل الطموح والرغبة ، ولقد كان هذان القطبان يتواتران في طبيعة تيودور من خلال اكتئاب استمده جزئيا من كتابه الاثيرين الى نفسه ، وجزئيا من شكوكه التي دارت حول الوجود الانساني ، ولعله سيكتشف في فيينا ان الحياة ، وهي محاطة دائما بهذين اللغزين الابديين اللذين لا حل لهما : الموت والفناء ، ستظل شيئا له غاية . » (ص ٥١)

وبنفس المنهج العذب يحلل لنا المستر ستيوارت مولد « رجل القوة » في نفس فارسه الصغير ، الشاب تيودور ، فيؤكد لنا باصرار بالغ ان تيودور لم يكن مصابا بالشذوذ الجنسي . وهو لا يقول ذلك ، بطبيعة الحال ، بمثل هذه العبارات الفجة التي نستخدمها ، بل يذهب الى ما اراد قوله من درب متوفرة بالعلم والاسماء الرنانة ، فيقول لنا دون ان يطرف له رمش آن « معاصر (هرتسل) ومثيله في الديانة (اي اليهودي مثله) سيجموند فرويد ، وقد اقام نظرياته عن النفس الانسانية على دراسته للمرضى من خلفيات شبيهة جدا بخلفية تيودور ، قال ان فترة المراهقة يصحبها عادة اتجاه اللبيدو (الطاقة الجنسية في المصطلح الفرويدي) نحو افراد نفس الجنس (اي عشق الرجل للرجل والمراة للمراة) . الا انه لا توجد اية آثار تشير الى وجود مرحلة كهذه في النمو العاطفي لتيودور . » (ص ٤٧) لكن مستر ستيوارت ما يلبث ان يحتاط كعادته . فسمعته ككاتب مدقق ليست اقل تاثيرا فيما يبدو من حرصه على عدم الخوض في السير المقدسة . ولذا فانه يضيف قائلا « .. وهو مراهق ، على الاقل » ! ويضع علامة هامش صغيرة بجانب هذا التحفظ تشير الى هامش منزو صغير في ذيل الصفحة يقول ، وكانه يقول « لكني آتا لا شان لي ! » : « وقد وجد تلك الاثار محلل نفسي اخر (ومن هو المحلل النفسي الاول ؟ مستر ستيوارت ؟) فيما بعد في حياة هرتسل » ، ويذكر اسم العالم وعنوان كتابه . (٣٥) وعلى اية حال فان المستر ستيوارت ، مستشهدا برواية

(٣٥ هامش بذيل ص ٤٧ :
(* Another psychoanalyst has found them later in Herzlls life :professor Peter Loewenberg in « Theodor Herzl : A Psychoanalytic Study in Charismatic Political Leadership » pp . 182 - 183)

محسن أطيمش

ليلة المسافر

يتقدم ، كانت خطاه
سئلما في الرمال الغريبه
تملأ الريح كفيه ، تنشر اشرعة حوله
انها ظلمة والمدى لا يبين ،
فيا ايها المتلفع بالليـــل ، ليس سوى الليل مركبة
ليس غير الهواجس حقل ، فلا تتئد
ولتفذّ المسير ، فبين الضفاف وبين الخطى
زمنٌ ممطر كلّ ماء الصبابة ، بين الخطى
لغة (هل تقول الذي يكره الليل اعلانه)
ان امرا تأرجح وسط الغصون ، ارتدى خضرة
دون ان تعرف الأرض ، ثم تناثر في الرأس ،
صار طبولا تدّق ، وكنت تحدثني :
(آه لو يأخذ النهر صوتي الى المنتهى)
وكنت بعيدا ، فلم اتبين حديثك ،.. مرتجفا ،
كان كل الذين عرفت كسعف النخيل
انها ليلة راجفه
تلك مرثية العشب ، كل كسعف النخيل
ثابت بين قرع الطبول ،
وانت بدأت خطاك ، فيا ايها المتلفع بالليل ،
ليس سوى الليل مركبة
فلتفذ المسير ولا تتئد .

* * *

أيبتعد الماء ؟ هل اهتدي بالرمال ؟ اتمشي الرمال
الى البحر ،
مثل السواقي ؟ ام اهتدي بالكلام القديم ،
ولي حكمة
كلما ارتجف الامر ، اعلن بدء الفناء
كلما تكبر الارض ، يكبر خطوي
والم شتات الزمان ، فايتها الريح ،
ايتها الظلمة اجتمعي
ان بين الاكف لمتسعا
والذي تعرفين
ساهر ، والضفاف ساهرة ، فاستقري
فما كل خطو بلا ضجة ، وما كل قول يضيع ،
فهذي الرمال صدى ، والمياه التـي تهرب الان
ترجعية
ان أفقـي حقل الطيـور ، وفـي راحتي نبعهـا
الابدي .

* * *

في الصباح رأته المياه
كان ممتلئا مثلها ، زرقة صافيه
والندى والطيور
تنشران الثياب الانيقة اشرعة
ــ : هل رأتك الحقول نبيا ؟
ان ما بيننا يتلون مثل الغصون
وها انت لون جديد
فمن اين جئت ؟
وكيف اهتديت ؟
قال لي :
اننا صورة واحده .

روبرت موزيل (Robert Musil) وعنوانها (Young Torless) التي تدور حول التمسا في ظل فرانتز جوزيف ، يقول لنا آسفا « ان تلك العلاقات ازدهرت ، بنفس الطريقة المؤلمة ، في اوربا الوسطى ، بقدر ما ازدهرت في بريطانيا او فرنسا » ! (ص ٤٧)

ومن هنا يذهب الى تصوير الشاب تيودور هرتسل بوصفه ابنـا مطيعا لاسرة متزمتة اخلاقيا من شعب متدين يعرف خشية الله . لكن الفتى « كمراهق ، عرف الاندفاق العارم للشهوات الدفينة ، فكـان صراع . » وفيما يبدو مما يرويه المستر ستيورات ، وجد تيـودور هرتسل حل الصراع في تاليه المرأة رومانسيا : « ان المرء لا ينبغي له ان يحول الفتيات من عذارى جميلات الى كادحات من اجل العيش مثلنا نحن الرجال . فالذي ينبغي هو ان يتركن ليخطون فوق المروج، ويقطفن الازاهر والورود ليضعنها في شعورهن » ! (ص ٤٨) والكلمات مـن مذكرات هرتسل ، اما المستر ستيوارت فيقول : « واذا ما كـانت رفيقة الشاب الوحيدة اخت فاضلة ، بات مثل ذلك التاليه شيئـا مفهوما . الا انه يمكن ان يكون خطرا . فبينما يوضع موضوع الحلم على قاعدة تمثال ، تزاحمنا المرأة الحقيقية بالمناكب في اوحال الطريـق . فالنساء كجنس يقسمن (في مثل هذا الضرب من التاليه) الى قبيلتين متناقضتين : الامهات والاخوات في الجانب الوضيء ، والمومسات في الجانب الوضيع . ومثل ذلك التقسيم اعداد سيء للزواج ومشجـع قوي على المغامرات المختلسة . لكن تلك المغامرات يصعب القيام بها في مدينة يكون الفتى الحالم معروفا فيها . وهكذا فانه لا يجد امامـه الا القيلولة الخانقة والليالي الطويلة الخاوية ... ورويدا رويدا يواجـه الفتى بالاختيار الصعب : ان يستسلم للشهوات ، او ان يكبح جماحها بصرامة . والبعض يستسلم . بيرون ، مثلا ، تحول الى دون جوان . ذلك طريق . لكن هناك طريقا اخر متطرفا . فالشهوات يكبح جماحها بحزام ضاغط . وبذا يولد رجل القوة . » (ص ٤٨)

لندن